الانتساب والتهرب من الحضور في المدارس والكليات.. مشكلة تعليمية أم نفسية؟

د. عبد السلام آلبوحيَّة / مقيم أقدم في طب الأمراض النفسية

مع ارتفاع أعداد الإصابات بفايروس كورونا، قررت الحكومة العراقية وعلى أكثر من مرة إغلاق المدارس والجامعات، واستبدال الدوام الحضوريّ بنظيرٍ إلكتروني، وهذا ما كان الظرف يحتمه لأسبابٍ صحيّة مباشرة؛ ولكن – وكعادة أي إجراءٍ في ازمة – لا تعني صحة قرارٍ في لحظة، الاّ يكون له مردودٌ سلبي على مدىً أبعد.

**نواجه اليوم – في العراق – وباءً نفسياً خطراً في بطانة الوباء الفايروسي، وهو على عكسه، شائعٌ في الشباب أكثرَ من الكهول**، وقد تجلى بظاهرة إدارية (الانتساب الى البيوت بدلاً من المدارس، وقلَّة الحضور في الجامعات)، ومن الواضح لأيّ متتبع أن الأنظمة التعليمية – تقليديةً كانت كما لدينا أو لا – قد واجهت وقتاً عصيباً في فترة الإغلاق، وأنها لم تكن مهيئة لذلك، ولكن ظاهرة الغياب المدرسي School Absenteeism بحدّ ذاتها، لها أبعادٌ نفسية سيئة جداً.

لن ندخلَ في سؤال ما السبب: هل الغياب سبَبُه اختلالات نفسية – من قبيل الكآبة والقلق –، أم ان الاختلالات سببها الغياب؟ فمجموعةٌ كبيرة من البحوث أثبتت ان العلاقة بينهما أكيدةً جداً، ولا يمكننا ان نعزو القلق الطُلابي العام بعد خروج المؤسسات التعليمية من الإغلاق إلى التَصنُّع فقط، بل ربما كان الوباء وتهلهل النظام التعليمي قد رفع الغطاء عن مشكلة حاضرة منذ اليوم الأول، غرَّب عنها تجاهلٌ مجتمعي وتعليمي عميق.

وبغض النظر عن جدلية الأسباب، فظاهرة الغياب بحدِّ نفسها سببٌ لمجموعة من الظواهر النفسية والاجتماعية المُقلقة التي أكدتها الدراسات\* ومنها الفشل في التواصل الاجتماعي، وفي الوظيفة مستقبلاً، وسوء العلاقة مع الأهل، والتواصل مع نُظراء سيئين، وتَعنُّد الكآبة، وانهيار الثقة بالذات؛ **فالغياب – إذا كان جذره نفسياً – لا يُحلُ بمزيدٍ من الغياب (كالانتساب)، بل ذلك من قبيل صبّ الزيت على النار!**

والنتيجة الأهم لكل كلامنا، هيَّ أن الانتساب – على صعيد المدارس – والتهرب من المحاضرات – على صعيد الجامعات –، قد لا تكون مشكلةً نفسية في الجوهر، بل هو أحد أصداء نظام تعليمي عفا عليه الزمن، وتعرَّض لتحدٍ كبير، ولكنَّهُ عرضاً أدى الى مشكلةٍ نفسية ضخمة، ينبغي لنا التعامل معها، ولو من خلال توعية الكوادر التدريسية بالتعامل الصحيح معها (فليست كل مشكلة نفسية سبباً للإنتساب! بل قد يكون الانتساب كما قلنا سبباً في زيادتها)، وإيجاد طرق أكثر فعالية لإيصال الطالب المتضرر الى عامليّ الصحة النفسية من أطباء وباحثين، لتدارك مستقبلٍ جائرٍ، شخصياً، ولوطننا؛ مضافاً – وإن كان خارج مدار هذا المقال – إلى حاجة جادّة لتغيير النظام التعليمي بما يتناسب مع حاجات طُلابنا المعرفية والنفسية.

\* أنظر لأجل مراجعة جيدة لهذه النقطة والتي سبقتها:

Wood, Jeffrey J et al. “School attendance problems and youth psychopathology: structural cross-lagged regression models in three longitudinal data sets.” Child development vol. 83,1 (2012)